موقف الشيخ الغزالي من قضايا المرأة في الإسلام

حوار أجراه في القاهرة ثابت عيد وإريك جيسلينج

تعود قصة هذا الحوار الذي ينشر بالعربية لأول مرة إلى ديسمبر ١٩٩٢، حيث كان إريك جيسلينج وثابت عيد ينتجان فيلما عن التطرف الديني في مصر للتليفزيون السويسري، وقابلا المرحوم الشيخ محمد الغزالي، فكان هذا الحوار:

- يعتقد كثير من الغربيين أن النساء في العالم الإسلامي محرومات من الحرية، فما رأيك في هذا؟

الغزالي: قد تكون النساء محرومات من الحرية في الشرق وفي الغرب معا، لتقاليد صنعها الناس، وليس لشرائع نزلت من عند الله. المرأة في المسيحية مسئولة عن شقاء البشرية، لأنها هي التي أخرجت آدم من الجنة. أما نحن في الإسلام، فنبرئ المرأة من هذا الاتهام، ونقول إن آدم هو الذي انخدع، وأكل من الشجرة، وإن امرأته ليس لها ذنب في ذلك. ثانيا: صاحب الرسالة، محمد (صلعم) كان ينظر إلى رجال الدين، فيراهم يكرهون المرأة ويحتقرونها، أو يستمتعون بها ويرمونها، فقال في حديث صح عنه: »حبب لي من دنياكم: النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة«. ومعنى الحديث أنه جعل المرأة مع الورد والزهر والعطور، فأعلى مكانتها، بعد أن كان البعد عنها دينا. ولا تتم الرهبانية في المسيحية، إلا بالبعد عن المرأة، على أن الشهوة الجنسية رجس من عمل

الشيطان. نحن لا نعرف هذا في ديننا قط، فديننا بعيد عن هذه الأفكار. قد تكون أوضاع المرأة رديئة في العالم العربي أخيرا. ولكن في فجر الإسلام كانت أوضاع المرأة في غاية الاستقامة والاعتدال والقوة. لأنه أولا صاحب الرسالة يقول: »النساء شقائق الرجال«. والقرآن الكريم يقول: »فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض«، ويقول: »من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون«. أصول القرآن والسنة عندنا تعطي المرأة حقها كاملا، كالرجل تماما. وقد سألني بعض الغربيين، فقالوا: لماذا يعطي الإسلام المرأة نصف الميراث؟ فقلت له: أفضل منكم أنتم، لأنكم لم تعطوها شيئا قط. وأعطيتم الميراث كله للابن الأكبر، وحرمتم من بعده. أما نحن، فأعطيناها النصف، على أن يبقى لها، فلا تنفق منه على نفسها، بل الذي ينفق عليها زوجها، أو والدها، أو أخوها، أو أقرب الناس إليها. فنحن ما ظلمنا المرأة في تعاليمنا إطلاقا. إنما هي إشاعات كاذبة. شائعات لا أصل لها.

- كيف يؤثر الغرب على حياة النساء في مصر والشرق الأوسط؟

الغزالي: للأسف الذي حدث أن العالم العربي في العصر الأخير كان قد حرم المرأة من بعض الحقوق التي كفلها لها الإسلام. وأضرب لك مثلا صغيرا: كان عبد الله بن عمر بن الخطاب - الخليفة الثاني - يدرس في المسجد، فقال: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، اجعلوا النساء يصلين في المسجد. فقام

ابنه، وقال: لا ، والله، لنمنعهن. فأقبل عليه أبوه يشتمه، وينال منه بأسلوب شديد القسوة، وقال له: أقول لك قال رسول الله، وترفض. السؤال الذي سألته لنفسي، وسأله كثير من الناس أنفسهم: من الذي مضى رأيه؟ هل الحق كما طالب به ابن عمر، أم الغيرة الفاسدة كما صورها ابن عبد الله؟ لقد منع المسلمون المرأة من الذهاب إلى المسجد، ولكن الرسول فتح المسجد لها، ووضع لها بابا، وقال: هذا باب النساء، يدخلن منه. وكن يدخلن من الفجر إلى العشاء: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، الأوقات الخمسة. وكن يأتين من بيوتهن في الظلام وفي الضياء. ومع هذا فالذي يحدث الآن في كثير من مساجدنا هنا في مصر هو ألا تصلي المرأة أبدا في المسجد، وليس لها صف. فهل هذا ذنب الإسلام، أم ذنب التعاليم التي شاعت بين الناس ولا أصل لها؟ ثم جاء الغربيون بتعاليم، لا هي من الدين المسيحي، ولا هي من الدين الإسلامي في شئ. لأن المعروف أن المرأة في الغرب تملك جسدها، كما يملك الرجل جسده، والمفهوم عند الغربيين أن من حق المرأة أن تتصرف في نفسها، وإن من حق الرجل أن يتصرف في نفسه، ومادام بلغ رشده، فلا يحجر عليه أحد. ومن هنا اختفت البكارة ربما في سن العشرين أو الثامنة عشرة، أو قبل ذلك. هذه التقاليد هجمت علينا، في حال من ضعف الأمة الإسلامية، ومن سوء عملها بدينها، فكانت هذه الفوضى التي نراها الآن.

- ما معنى شعار دار الإسلام، ودار الحرب؟

الغزالي: هذا كلام موجود في الكتب، ولكن لا أصل له. أو

العالم الغربي هو سببه. فما حدث قط أن العالم الإسلامي عامل الذين لا يدينون بالإسلام، إلا معاملة طيبة. بمعنى أنه اعتبر الأقليات الدينية هنا في ذمته، في عينيه، في رقبته، فمنع أن تضام، أو أن تترك دينها، ولذلك بقي المسيحيون عندنا على دينهم، ولم يتركوه. كنا نستطيع أن نمنعهم البقاء على دينهم، ولكننا رفضنا أن نفعل ذلك. إذا جاء إنسان من أي ناحية، فله عقد الأمان، حيث يصان دينه، وعرضه، وماله. بل يُترك يشرب الخمر ويأكل الخنزير، ولا نمنعه من هذا.

الشئ الثاني هو معاملتنا لهؤلاء الأجانب في دولهم، هي معاملة عادلة، فلا نعتدي عليهم، إلا إذا اعتدوا علينا: »قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين«. نستطيع أن نضع التشريعات والقوانين، ولكن للأسف حتى آخر لحظة كان الوضع الديني في الغرب يضن علينا بحق الحرية وبحق الإسلام، وهذا موجود في الغرب حتى الآن، ربما يكون قد خف الآن قليلا. لكن الحروب الدينية في أوروبا، ألم يكن هؤلاء مسيحيين بروتستانت وكاثوليك؟ ما الذي جعل الكاثوليك يرفضون أن يكون البروتستانت على مذهبهم؟ ويقاتلونهم؟ أنت تعرف قصة مذابح سان برتلمي الدينية في فرنسا (سنة ١٥٧٢م)، عندما قتل من البروتستانت حوالي أربعين ألف في ليلة واحدة. ألم يكن هذا القتل ناتجا عن المعارك الدينية في الغرب؟ الغربيون هم الذين قالوا: الإسلام وحده لا نتفق معه، ولا نمد يدنا إليه. نحن نقول لهم: لكم دينكم ولي دين، لي عملي ولكم عملكم، من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، من جاهد فإنما يجاهد لنفسه. ولكنهم رفضوا. ولذلك عندنا أحد الخلفاء العثمانيين، اسمه سليمان

القانوني، عقد معاهدة مع أحد حكام فرنسا، أعطى فيها للفرنسيين امتيازات، فغضبت الكنيسة لأنه كيف يعاهد الملك الفرنسي الكاثوليكي المسلمين؟ ولا تجوز له المعاهدة؟ فقصة وضع العالم قسمين، الغرب هو الذي صنعها، وليس نحن. أما نحن، فنريد تحقيق ما قاله رسول الإسلام: أشهد بأن العباد كلهم إخوة. لقد أمرنا أن نتعرف على الناس، وقلنا للمسلم أن يتزوج مسيحية، فإذا كان بيت مثل بيتي هذا يطيق رجلا مسلما وامرأة مسيحية يأخذها في أحضانه. فهل يضيق بالأرض الفضاء أن يكون فيها مسلمون ومسيحيون؟ لا يضيق، ولكن الذي ضاق هو من ضن على الإسلام بحق الحياة. أعطني حق الحياة، كما أريد بديني، وتمتع أنت بدينك كما تحب، عندئذ تختفي قصة دار الحرب ودار الإسلام.

أعطني حق الحياة. الحاصل حتى الآن لا. الحضارة الأوروبية، لأن أصولها يونانية ورومانية وثنية، ولأن للأسف لا يوجد في الكنيسة قانون مدني أو قانون جنائي أو قانون دولي أو قانون للعمل، فاتبع الأوروبيون قوانين أخرى سنوها لأنفسهم، هذه القوانين أباحت الخمر مثلا، نحن لا نبيح الخمر، لكن قانوننا لا يحرمها بضغط من الغربيين. نحن نحرم الزنا، لكن القانون يبيحه، مادام بالتراضي. كان رئيس كنيسة كانتربري مع أعضاء لجان الأحزاب - العمال والمحافظين - يؤيدون الشذوذ الجنسي. نحن نرفض هذا كله.

والغرب كابس علينا، يقول: حضارتكم لابد أن تكون من حضارة العالم الغربي وامتداد لها. وحكامنا وراءه، وهذا سر البلاء الذي يشيع الآن والاضطرابات والفوضى والتطرف وغير التطرف. نحن نريد نظاما إسلاميا. والنظام الإسلامي

يؤخذ ممن؟ من علماء الإسلام. أنا رجل من علماء المسلمين. فلا ينبغي أن تأتي لي بواحد كهربائي، أو طبال، كما يقولون، ليشرع للأمة الإسلامية. فماذا يعرف مثل هؤلاء في التشريع؟ أنا لما أشرع، سأقول افتح باب المسجد للمرأة من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء، كما كان أيام رسول الله، بل حتى القرن السابع الهجري. فهناك رسالة ألفت في دار العلوم، مؤلفها هو محمود الديك، عن السنة النبوية في القرن السادس الهجري، قال فيها إنه كان هناك حوالي أربعين امرأة يشتغلن بتدريس السنة النبوية في العالم الإسلامي. وعندي كتاب الترغيب والترهيب، وهو من أصول السنة، يقول مؤلفه: رويته عن فلانة، أعطتني إجازة بتدريسه. وابن خلكان المؤلف المشهور في التاريخ، صاحب وفيات الأعيان، قال أيضا إنه روى هذا الكتاب عن فلانة، وأعطتني إجازة بتدريسه، هكذا. فقد كان عندنا علماء في السنة وعلماء في الفقه وعلماء في التفسير من النساء. ولكن مع تأخر العالم الإسلامي، حبست المرأة وضاع حقها، ولما جئنا نتحرك بها إلى الخير طغت علينا الحضارة الغربية، وبدلا من أن يأتوا إلينا بفدائية، مثل القديسة الفرنسية جان دارك (التي أعدمت حرقا سنة ١٤٣١م) نتعلم منها خلقا طيبا، لا، لقد أحضروا إلينا ممثلات مثل مارلين مونرو، وغيرها، لكي نتعلم منهن الكلام الفارغ.

- الشيخ الغزالي، شكرا لك على هذا الحديث.